الاهتمام المصري بالقضية الفلسطينية

ظلت مصر، حتى نشوب الحرب العالمية الثانية، منصرفة عن الشأن العربي والمشروع القومي اللذين انشغل بهما المشرق العربي احقاباً طويلة، وبالذات منذ اواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي. وربما عاد ذلك الى انشغال السياسة المصرية الرسمية والحركة الوطنية المصرية بالشأن الداخلي، بمحوريه الرئيسين، الجلاء والسودان[٢]. لكن اشتداد الصراع بين الحركة الوطنية الفلسطينية، من جهة، والاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية العالمية، من جهة أخرى، في عقدي العشرينات والثلاثينات، عند الحدود الشمالية ـ الشرقية لمصر، اجتذب الاهتمام المصري بالقضية الفلسطينية. وبفشل الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) وازدياد الهجرة الصهيونية الى فلسطين، بمساعدة وحماية الدولة الاستعمارية ذاتها التي دخلت الحركة الوطنية المصرية معها في صراع طويل وحاد من اجل الاستقلال والسيادة الوطنية، بدأت مصر تدرك ان ما يدور من احداث في فلسطين سيكون له تأثير مباشر وبالغ الخطورة على أمنها القومي ومصالحها الوطنية والقومية.

وقد تعاضدت ثلاثة عوامل على خلق الاهتمام المصري بالقضية الفلسطينية وزيادته. أولها ديني؛ فقد نظر المصريون، وهم مسلمون في أغلبيتهم، الى نضال الشعب الفلسطيني باعتباره جهاداً مقدساً ضد خطر صليبي جديد ارتدى الثوب اليهودي هذه المرة، وهو خطر موجّه نحو أرض اسلامية ومقدسات اسلامية. وقد أشار الى ذلك السفير البريطاني في القاهرة، لامبسون، في رسالة بعث بها الى رئيسه، وزير الخارجية البريطانية، في العام ١٩٣٩: «هذا الحماس الاسلامي المثار قد نفث عن نفسه، تنفيثاً طبيعياً، في حملة متصلة هدفها مساعدة جيرانها من مسلمي فلسطين الذين يتخذ جهادهم ضد البريطانيين واليهود صورة الحرب المقدسة»[٣].

والعامل الثاني يتصل بمخاوف مصر على أمنها القومي ومصالحها الاقتصادية. فقد رأى معظم الاوساط العلمانية في مصر، على اختلاف مشاربها الفكرية، ان انتصار المشروع الصهيوني في فلسطين وقيام دولة يهودية على حدود مصر الشرقية يمثّلان خطراً مباشراً يهدّد الأمن القومي لمصر، ويضرّ بمصالحها الاقتصادية في الوطن العربي. واستندت هذه الاوساط الى حجج وبراهين مستمدة من الوضع الجيو ـ بولتيكي لمصر ودروس التاريخ، ومن الاعتبارات الموضوعية لمرحلة التطور الاقتصادي والاجتماعي التي كانت تمرّ بها مصر. فدروس التاريخ والوقائع الجيو ـ بولتيكية كانت تؤكد، دائماً، ان من يسيطر على بلاد الشام يمكن ان يسيطر، بسهولة، على مصر، وبالتالي، فان حدود مصر الأمنية تمتد الى ما وراء فلسطين. كما ان البرجوازية المصرية التي كانت بدأت بتثبيت اقدامها على طريق التصنيع، وراحت تتطلع الى الاسواق العربية، احسّت بأن قيام دولة يهودية في فلسطين، من شأنه ان يلحق ضرراً بالغاً بالاقتصاد المصري، وهو ما عبّر عنه لامبسون في رسالته المشار اليها سابقاً، حين قال: «وعلى أية حال يجب ألّا نفترض ان التعصب الديني هو، وحده، المسؤول عن مساعدة المصريين لعرب فلسطين؛ فجميع المصريين يتعاطفون، فعلاً، مع العرب في جهادهم. وأكثر الطبقات فهماً يتوقع ان يعتدي اليهود على شعوب الشرق الأدنى، وعلى اقتصاده. ويخشى المصريون ـ وربما لخوفهم ما يبرّره ـ ان وجود دولة يهودية قوية يؤثر، جدياً، في تفوّق مصر الاقتصادي في الشرق الأدنى»[٤].

اما ثالث تلك العوامل، فهو انساني. فالمشروع الصهيوني لم يحظ بأي تعاطف من جانب القوى السياسية والاجتماعية المؤثرة في مصر، بما فيها القوى الليبرالية، لأنه لم يكن قائماً على أي اساس من أسس الشرعية والقانون، بل هو يقوم على الظلم والاجحاف واغتصاب الحقوق. واعتبرت